إلى الأستاذ توفيق الحكيم

للأستاذ سيد قطب

— ٢ —

... لكأنما أسمعك تقول في عتب يشوبه الألم والغضب : لماذا نسي أنني من قبل قد عالجت : « أهل الكهف » و « شهرزاد » و « سليمان الحكيم » وكلها موضوعات إسلامية أو شرقية . ولم تكن محاولاتي قاصرة على « أوديب » و « بيجماليون » و « براكسا » .

شيئاً من التمهل يا صديقي الكبير .

أتذكر على أي أساس عالجت هذه الأساطير الشرقية ؟

لقد عالجتها على الأساس الذهني — فكرة تتناضل فكرة ؛ أفكار مجردة تتحرك على « مسرح الذهن » كما ألححت أنت أن تسميه !

إن عبقرية الشرق الأصيلة لم تكن يوماً ما مجرد عبقرية ذهن تجريدية . لقد كان الذهن قوة من قواتها ولكنه لم يكن قوامها الأصيل : إنها أبداً كانت عبقرية حس حي أو روح رفاف . تجسدها في الهند صوفية مضحية عميقة ، وفي العرب طبعاً حياً متوفزاً ، وفي مصر وداعة وبساطة وإيمانا .

إن عبقرية الذهن التجريدية عبقرية غربية . وعلى وجه خاص ، عبقرية فرنسية !

آه يا صديقي ! ليتك لم تذهب إلى فرنسا !

ولكنك ما كنت بمستطيع إذن أن تقوم بدورك الأساسي في وضع القالب الفني الصحيح للتمثيلية العربية . فدراستك هناك للمسرح الإغريقي هي التي مكنتك من وضع القالب السليم .

إن الخير لا يمكن تحيينه . والشر لا يخلو من الخير بحال .

والآن يا صديقي هل أدلك على النبع ؟

لقد قال لك أستاذك الفرنسي كما قلت في زهرة العمر ، وأنت تعرض عليه محاولاتك باللغة الفرنسية : « أكتب بلغتك لتبدع » !

هذا هو نفسه ما أقوله لك : استوح « ميراثك » لتبدع !

إن هذا الميراث هناك كامن في ضميرك ، تخنقه ثقافتك الفنية الفرنسية . إنك تبعد عنه كلما ذهبت إلى الإغريق وغير الإغريق تستلهم أساطيرهم القديمة . إنك مصري . مصر القديمة الثائرة في أعماق التاريخ ، الساربة في ضمير الزمن ... مصر هذه ما تزال كامنة في مصر الحديثة التي تعيش في ثوب مستعار ... مصر القديمة بأساطيرها هي نبعك الشخصي العميق . ولن تحتاج إلى رحلة وراء آلاف السنين . ما عليك إلا أن تعيش مفتوح القلب والحس والعين في ريف مصر وفي أحيائها العامة ... وعلك من « سليمان باشا » و « الزمالك » و « المادي » و « الحي » ... هذه وقع مستعارة في الثوب الأصيل . هذه لطخ شوهاء في اللوحة المتناسقة .

افتح قلبك وحسك وعينك ، ثم اقرأ شيئاً عن مصر القديمة ولاحظها ما تزال حية في ضمير الشعب وعاداته وسلوكه ... ثم اكتب ...

خذ القالب الأوربي . القالب وحده . ولكن صور في هذا القالب الضمير المصري ، بروح مصرية ، وحاول أن تهتدي إلى عبقرية الشرق الأصيلة . وهي ليست مجرد عبقرية الذهن التجريدية !

وحين تتناول الأسطورة المصرية لا تحاول أن تجردها من اللحم والدم ، والانفعالات والمشاعر ، لترى ما وراء ذلك كله من فكرة ذهنية تجريدية ... خذها حية بلحمها ودمها ، وصغ منها مسرحيتك .

ولكنك لن تصنع هذا إلا إذا أحسست الأسطورة حية في شعورك ، نابضة ثائرة في ضميرك .

إن أجل الأعمال الفنية ما تم في نصف وهي ونصف غيبوبة . استيقظ حين تضع القالب فحسب ، أما ذات الموضوع فيجب لكي يعيش ويخلد أن يكون ثائراً في أعماق ضميرك إلى حد أن تشعر وأنت تكتبه كأنك هتكته في زمن لا تذكره ولا تدريه !

إنك يا صديقي لن تتجاوز منطقة التاريخ الأدبي إلى منطقة القيم الفنية المطلقة ، إلا حين تهتدي إلى النبع — نبعك الموروث الأصيل — وإلى عبقرية الشرق — عبقرية القلب والضمير .

ولكني أعرف أن هذا عمل عسير .

إن « القالب » الذهني على الأساطير الإغريقية يسير على قواعد موجودة فعلا ، فالأوربيون عبدوا الطريق . أما استلهام الأساطير المصرية فعمل تبدؤه أنت بلا نموذج أمامك مرسوم !

ولقد يكون من المغالاة والإرهاق أن نطلب إلى فرد واحد ،

وضع القالب الجديد فى الشكل وفى الموضوع ... ولكننى لا أجد حتى اليوم سواك فى عالم التمثيلية أطلب إليه هذا الاقتراح المعقول !

لقد وجد فى عالم القصة والرواية من يستلهم الطبيعة المصرية الخالصة ، بروح مصرية خالصة — وهذا هو الأهم . فليس من الضرورى — فى غير الأساطير وما يشبه الأساطير — أن يكون الموضوع مصريا ، ولكن المهم أن يعالج بروح مصرية .

والاستطراد يسوقنى إلى « قنديل أم هاشم » ليحيى حقى . وإلى « خان الخليلى » لنجيب محفوظ .

لقد استلهم يحيى حقى أعماق الطبيعة المصرية وهو يصور الإيمان بكرامات الست « أم هاشم » وما يتصل بها من عقائد وأساطير . كذلك استلهم نجيب محفوظ هذه الأعماق وهو يصور « سخرية القدر » بآمال الناس وأحلامهم وحياتهم جميعاً .

لقد كانا مصريين دماً ولحماً وعاطفة وشعوراً فى هذين العملين المجيدين — وذلك هو الطريق !

وعلى ذكر « نجيب محفوظ » فإنى أستشعر فى نفسى الخوف على هذا الشاب القصاص الموهوب !

لست أذكر متى سمعته يقول ونحن نتحدث عن رواية : « زقاق المدق » إنه أراد أن يدخل قالباً معيناً فى الرواية المصرية . قالب الرواية المرضية لا الطولية ، وأنه لهذا صاغ روايته فى هذا القالب الجديد .

القالب — ! هذا هو الخطر الأكبر يا صديقى نجيب ! لست أفهم هذه الكلمة اللعينة ! أفهم أن يتم العمل الفنى أولا ، بلا قصد من صاحبه أن يضعه فى قالب معين . ثم يأتى النقاد بعد ذلك فيقيسونه ، ويجمعون سماته ، ثم يسلكونه فى عداد القوالب الموجودة بالفعل أو يسجلون أنه قالب جديد !

إذا وضعت القالب أولا فإنك لا بد أن تخنق عملك ليكون وفق هذا القالب . وفى كل خطوة ستستيقظ لتقيس هذا العمل ، وترى إن كان قد خرج على القالب الموضوع !

لا . لا . حذار أيها الصديق المرجو . إن القالب لا قيمة له إلا فى عالم التاريخ !

معذرة — أيها الأستاذ الكبير توفيق الحكيم — لقد شطح بى الحديث إلى هنالك . والحديث شجون !

فلنعد إلى ما كنا فيه ...

فكرة أريد أن أصححها عن « الفلسفة الإسلامية » كما يصورها ابن رشد وابن سينا والفارابى ... فقد ألممت بهذا فى بحثك الممتع الطويل .

إن هذه الفلسفة قد نصح تسميتها « الفلسفة الإسلامية » بمعنى أنها قد وجدت فى أرض إسلامية على يد أفراد مسلمين .

ولكن يكون من الخطأ العميق اعتبارها « فلسفة الإسلام » وقد آن أن تصحح هذه الغلطة القديمة الحديثة !

إن فلسفة هؤلاء الفلاسفة إن هى إلا انعكاسات للفلسفة الإغريقية فى ظل إسلامى . وهى لا تبلغ أن تصور الفكرة الكلية للإسلام عن الكون والحياة والإنسان . هذه الفكرة الخالصة الكاملة المتناسقة .

ما أشبه الدور الذى قام به هؤلاء الفلاسفة الإسلاميون بالدور الذى تقومون أنتم به الآن — أنت وجيل التمهيد من الشيوخ — فتنة بالفلسفة الإغريقية ، ومحاولة لتفسير الإسلام على ضوء هذه الفلسفة . والإسلام يحمل فكرة مستقلة مختلفة فى طبيعتها الأصلية ، عن طبيعة الفكرة الإغريقية من الأساس[1] !

من أذهانهم لا من قلوبهم استمدوا فلسفتهم ... وهكذا تصنعون !

لهذا وجدت تلك الفلسفة اهتماماً وعناية من الأوربيين ورثة الإغريق ؛ لأنهم قادرون على فهمها والإحساس بها . أما فكرة الإسلام العميقة الكلية عن الكون والحياة والإنسان فهى شىء آخر لم تصوره تلك الفلسفة ، ولم يتمثله الأوربيون . وتبعاً لذلك لم يتمثله المحدثون من المسلمين الذين يتلقون كل ثقافتهم عن الأوربيين !

ومالى أومكم أنتم ، والأزهر ذاته لا يدرس فى كلياته إلا تلك الفلسفة الإسلامية باعتبارها فلسفة الإسلام !

أنا واثق أن سيكون لنا أدب خالد ؛ وأن ستكون لنا حياة فكرية وإنسانية ملحوظة . ذلك يوم نؤمن بأنفسنا ، يوم نشعر أن لدينا ما نعطيه ، يوم نستلهم طبيعتنا الأصيلة . يوم نهتدى فى ذواتنا إلى النبع العميق .

(وشطون)

سيد قطب

(١) راجع كتاب « العدالة الاجتماعية والإسلام » فصل « فكرة الإسلام عن العدالة الاجتماعية » .